شعر خليفة التليسي ... موضوعاته وخصائصه

أ.عبدالقادر زين

جامعة الجلفة

كثيرة هي الإبداعات المغاربية التي لم تمتد إليها يد دارس ، بعد أن ابتعدت جغرافيا عن مركز الضوء المسلط على عواصم الشرق العربي ، فبقيت حبيسة الرفوف وفي بعض الحالات لم تخرج من أدراج مبدعيها ، فكان الإبداع المشرقي أحسن حالا من صنوه المغاربي ذيوعا وتناولا ، وعلى امتداد قرون طويلة .

والشاعر خليفة التليسي واحد من الذين دفعوا ضريبة هذا البعد ، فرغم أنّ له ديوانا طبع في ليبيا منذ أكثر من عقدين من الزمن ، إلا أنه عرف في الأوساط العلمية كمؤرخ ومترجم ومعجمي ، ولم يلتفت إلى شاعريته أحد ، ولو كان شاعرا من شعراء بيروت أوالقاهرة أودمشق على سبيل المثال ، لما كان شأنه الثقافي أقل من شأن شعراء هذا المركز الكبار ولعله كان يفوق أكثرهم – كما يصفه جهاد فاضل* –

في هذه المقالة المقتضبة أردت أن أسلط ضوءا ولو خافتا على هذا الشاعر لأبرزَ أهم الموضوعات التي عالجها شعره وملأت عليه حياته وأهم خصائص هذا الشعر، لأنني أعتقد أن شاعرية كالتي وُهِبها التليسي لاتوجد إلا عند كبار الشعراء ، ويحتاج إجلاؤها إلى دراسات كثيرة لا إلى دراسة واحدة ، ولكن ما لايُدرك كلّه لايُترك جلّه.

فالشاعر هو الأديب والمؤرخ والمترجم خليفة محمد التليسي من شعراء ليبيا المعاصرين ولد في التاسع من ماي 1930 بطرابلس الغرب ، ودرس بها حتى أنهى دراسته النظامية في 1948 ، ثم انتقل للعمل في مجال التدريس حتى 1951، تقلب في مناصب مهمة في العهد الملكي السنوسي منها رئاسة الأمانة العامة لمجلس النواب 1962 ، ورئاسة اللجنة العليا للإذاعة الليبية من 1962 إلى 1965 ، كما عين وزيرا للإعلام والثقافة في الفترة الممتدة من 1964 إلى 1967، ثم سفيراً لدى المغرب في العام 1968.

غير أن انقلاب الفاتح من سبتمبر 1967 جعل التقزيم والتحييد يطالانه ، فقُصر دوره على إدارة دار نشر ، وكل احتفاء لقيه بعد ذلك هو من خارج بلده فانتخب نائبا للأمين العام لاتحاد الأدباء العرب كما اختير أميناً عاماً لاتحاد الناشرين العرب

وعضوا في مجمع اللغة العربية بالأردن وعضوا في المجلس التأسيسي للموسوعة العربية بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم...إلخ

أما آثاره فقد تجاوزت الأربعين عملا ، أهمها معجمه "النفيس من كنوز القواميس"، وترجمته للأعمال الشعرية الكاملة للشاعر الأسباني لوركا ، وترجمته لبعض أشعار الشاعر الهندي طاغور، ودراسة خص بها عبقرية جبران والشابي ، وكتاب عن قصيدة البيت الواحد ، أما اختياراته الشعرية فبلغت ست مجلدات ... وغيرها كثير.

أما في ميدان الشعر فلم يترك سوى ديوان واحد صدر عن الدار العربية للكتاب بليبيا ضمنه خلجات قلبه وما جاشت به نفسه ، ولم يخرج فيه عن موضوعات ثلاثة كانت كالأثافي تسند تجربته الشعرية : الوطن والمرأة وبكاء الشباب ، وإذا دققنا النظر في ثلاثتها وجدنا قاسمها المشترك هو الحب ؛ حب للوطن وتفان في نصرته ؛ وحب للمرأة وهيام بجمالها ؛ وحب لشبابه الراحل وحنين لأيامه الخوالي ؛ فديوان التليسي ديوان للحب بكل معانيه .

1 - الوطـــــــن

ففي الوطن قال أطول قصائده (وقفٌ عليها الحب)، متغنيا بأمجاده جاعلا الحب وقفا عليه فقال:

وَقْفٌ عَلَيْهَا الحُبُّ شَدَّتْ قَيْدَنَـا *** أَمْ أَطْلَقَتْ لِلْكَوْنِ فِينَا مَشَاعِـرَا

وَقْفٌ عَلَيْهَا الحُبُّ سَاقَطَ نَخْلُهَا *** رُطَبًا جَنِيًّا أم حَشِيفًا ضَامِـرَا

وَقْفٌ عَلَيْهَا الحُبُّ أَمْطَرَ غَيْمُهَا *** أَمْ شَحَّ أَو نَسِيتْ مُحِبًا ذَاكِـرَا

وَقْفٌ عَلَيْهَا الحُبُّ كُرْمَى عَيْنِها *** تَحْلُو مُنَازَلَةُ الخُطُوبِ حواسرَا

وَقْفٌ عَلَيْهَا الحُبُّ تَنْظِمُ عِقْدَنَـا *** رَكْبًا تَوَحَّد خُطْوَةً وَخَواطِـرَا[1]

وفي سياق إظهار حبه لوطنه وولائه له ، يجعل ما ينفق في نصرته لا يساوي شيئا مقابل المنح والعطايا المعنوية التي يجنيها من بره ، والحياة الرتيبة هي حياة عابثة إذا لم يصاحبها ركوب الأخطار وخوض لجج الأهوال لكسب مجد مؤثل لا يبلى ، فما تعانيه النفوس في سبيل نصرة الوطن هو كالأتون تخرج من بوتقته السبائك الذهبية أكثر لمعانا وأشد ألقا ؛

إِنْ يُتْلِفِ الإِنْفَاقُ ذُخْرًا مُقْتَنَى *** فَالفِكْرُ يَمْنَحُهُ العَطَاءُ مَكَاسِبَا

عَبَثًا نَعِيشُ حَيَاتَنَا إِنْ لَمْ تَكُنْ *** أَيَامُهَا ضَرَماً وجَمْراً لَاهِـبَـا

تَتَقَلَّبُ الأَرْوَاحُ فِي وَقَدَاتِــه *** فَيَزِيدُهَا وَهَجاً وَوَحْياً وَاهِــبَا[1]

ويقرر أنه ما جاد إلا ببعض ما جاد به الوطن عليه ، فكيف يمن عطاياه وهي من صلات المعطي ردت إليه، وهذا ما غرس فيه الإيثار وجعله يفرح بما يُقَدِّم أكثر من فرحه بما يُقَدَّم له ؛

أَعْطَيْتُهَا بَعْضَ مَا أَعْطَتْ ، وَمَا أَخَذَت *** إِلاَّ اِسْتَزَدْتُ رَصِيداً مِنْ غَوَالِيهَا[1]

وهذه الأعطيات لا يستمرئها إلا إذا أشرك فيها غيره من أبناء وطنه الغالي

لاَ نَسْتَطِيبُ الخَيْرَ إِلَّا شِرْكَةً *** وَكَذَاكَ نَفْعَلُ إِذْ نَصُدُّ مَعَاطِبَا[1]

ويشبه وطنه بالنخلة التي أغدقت عليه ثمارها دون أن تنتظر منه مقابلا ، فأراد مواساتها بأنها ما زالت نضرة كما عهدها فلا داعي إلى أن يتسلل إليها يأس أو يلفها قنوط .

لاَ تَحْزَنِي إِنْ بَدَتْ بِالجُودِ مُقْفِرَةً *** غَوَادِقُ الغَيْثِ بِالخَيْرَاتِ تُولِيهَا

رَبِيعُ رَوْضِكِ مَا زَالَتْ مَوَاسِمُهُ *** نَضِيـرَةً تَتَمَنَى مَنْ يُلاَقِيــهَا [1]

إنه يفصح عن سر سعادته مع أهله في ربوع وطنه الذين إن حبس المطر عنهم ، كان نداهم الهطال يسد عوز كل معوز وخَلَّة كل فقير، ويجعل هذه الأعطيات تنال من وطنه دون مشقة أو إلحاح في السؤال فإذا كانت مريم ابنة عمران – عليها السلام – هزت إليها بجذع النخلة وامتثلت لأمر الحق – سبحانه وتعالى –{ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا } [مريم / 25] فقدمت الأسباب لترزق من ثمار نخلتها ، فإن نخلة الشاعر (الوطن) تساقط ثمرها (عطايا الوطن) دون أن يهزها ، وفي هذا مبالغة في امتنانه لما حباه به هذا الوطن ، وينمّ – في الوقت ذاته – عن حبه الشديد له:

لَكِنَّ نَخْلَتَهُ مَالَتْ بِقَامَتِـــــهَا *** وَأَطْعَمَتْنِي ثِمَارًا مِنْ أَعَالِيــهَا

وَمَا هَزَزْتُ بِهَا حَتَّى تُسَاقِطَــــهَا *** وَ لَا مَدَدْتُ يَدِي حَتَّى أُدَانِيهَا

أَعْطَانِي الرَّوْضُ مِنْ شَتَّى نَفَائِسِهِ *** كُلُّ المَوَاسِمِ جَادَتْ لِي بِغَالِيــهَا [1]

ثم يذكر ما آل إليه الحال وما قوبل به من تنكر وإجحاف من أبناء هذا الوطن الذي أحبه فيقول مستفهما متعجبا :

أَوَأُطْعِمُ الوَطَنَ الكَبِيرَ حُشَاشَتِــي *** وَأُعَانِقُ الأَحْرَارَ فِيهِ مَوَاكِبَــا

وَيَجِيئُ يَسْأَلُنِي الذِّينَ وَهَبْتُــهُمْ *** نُورَ العُيُونِ مَقَاصِدًا وَمَآرِبَــا[1]

ويمضي متوجعا ؛

قَد كُنتُ أَحسَبُهُ يَصُونُ مَوَاهِبَا *** فَرَأَيتُهُ لِلنَابِغِينَ مُحَارِبَــا

وطنٌ رَضَعْنَا حُبَّهُ فَأَثَابَنَـــا *** عَنْ حُبنَا أَلَمًا وَهَمًا وَاصِبَا [1]

وتركيزه هنا على صوت الباء واضح ، إذ اختير رويا وتوزع في جنبات البيتين وتوظيف الشاعر لهذا الصوت الانفجاري في قصيدته العتابية يأتي منسجما مع حالته النفسية التي اتسمت بالغضب من تنكر الوطن – ويقصد أبناءه – وهو عتاب صريح ، قرّع فيه قومه على جحودهم ، فلوّن بيتيْه بموسيقى ثائرة متوترة ، ولكن قدر الموهوب أن يقابل الإساءة بالاحسان والجحود بالاعتراف فكبير القوم لايحمل الحقد ؛

لا يَمْلِكُ الدَّوْحُ العَظِيمُ ظِلَالَهُ *** قَدَرُ المواهِبِ أَنْ تَفِيضَ مَشَارِبَا [1]

فشبه صاحب المواهب – في تعدد مشاربه وضربه في كل منها بسهم – بالدوح العظيم – وهو الشجر الكبير المتشعب ذو الفروع الممتدة – فكما أن الدوحة لا تملك قَصْرَ أغصانها ؛ فكذلك الموهوب همته تطاول عنان السماء وإقدامه لا يعبأ بما دون الجوزاء ، ولايلتفت لسفاسف الأمور.

ويستفهم استفهام المنكر عن عمره فيم أفناه وعن شبابه فيم أبلاه إن لم يكن في خدمة هذا الوطن ، وإن كل مجد حصله أو مكرمة نالها فهي لإعلاء رايته خفاقة بين الرايات :

فَلِمَنْ إِذَنْ تِلْكَ السُّنُونُ تَصَرَّمَتْ *** وَلِمَنْ أَقُومُ اللَّيْلَ شَبْحًا رَاهِبَـا

وَلِمَنْ أُعَانِقُهَا وَأَرْفَعُ صَوْتَـهَـا *** بَيْنَ المحَافِلِ شَاعِرًا أَوْ كَاتِبَـا

وَلِمَنْ أُفَاخِرُ بِالقَدِيمِ أَصَالَـــةً *** وَعَلَامَ أَحْتَضِنُ الجَدِيدَ مَوَاهِبَـا

وَعَلاَمَ أَرْفَعُهَا بِأَعْلَى قِمَّـــــةٍ *** وَأَرَى عَطَاءَ النَّاسِ فَرْضًا وَاجِبَا

أَوهَكَذَا تَغْدُو الأُصُولُ غَرِيبَـةً *** فِي أَرْضِهَا وَتَصِيرُ كَمًّا سَالِبَـا [1]

2 – المـــــرأة

لم يخف التليسي ولعه بالمرأة ، وخصها بالحيز الأكبر من ديوانه ولم يصرفه علو سنه ولاعفته وبعده عن ارتكاب المحظور في أن يصوغ في مدحها أجمل قصائده ، لأنه يجد في الشعر نفثة المصدور وتسرية المهموم ويستشهد باقتباس قرآني في أن الشاعر يقول ما لا يفعل :

أُحَذِّرُكُمْ أَنْ تَحْسَبُوا الأَمْرَ وَاقِعًا *** فَلِلشِّعْرِ أَوْهَامٌ وَفِي الفَنِّ مَا يُثْرِي

يُعَوِّضُنَا عَنْ غَائِبٍ بِخَيَالِـــهِ *** وَيَمْنَحُنَا وَهْمَ الخُمَارِ بِلَا خَمْـــرِ

وَقَدْ جَاءَتْ الآيَاتُ صِدْقًا بِحَقِّـنَا*** يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ مِنْ الأَمْــرِ[1]

ويؤكد في كل مرة أنه طاهر الذيل عفيف الإهاب إذا ٱلتمس ماعنده ، وأنه لايتورط في ارتكاب محظور مهما تزينت المفاتن وأسفرت المغريات، فيقول مخاطبا إحدى الغواني :

يَا هَذِهِ إِنَّ الغَرِيمَةَ عِفَّتِـــي *** وَلَطَالَمَا سَدَّتْ عَلَيَّ مَذَاهِبِـــي

حَرَمَتْنِي فِي عَهْدِ الشَّبَابِ لَذَاذَتِي *** وَمَضَتْ تُطَارِدُ فِي المِسَاءِ كَوَاكِبِي

وَإِذَا رَمَاكَ السَّبْقُ فِي مِضْمَارِهَـا *** فَأَظُنُّهَا تَحْظَى بِكَأْسِ الغَالِـــبِ [1]

وإن ذكر ميله إلى الحسان فسرعان ما يعود إليه ثباته وجَلده وتحكمه في زمام صبوته

لَئِنْ تَخَلَّى فُؤَادِي عَنْ مَقَاوِدِهِ*** وَأَطْلَقَ الشَّوْقُ مَعْقُودِي وَمَشْـدُودِي

فَمَا فَقَدْتُ ثَبَاتِي عِنْدَ نَازِلَةٍ *** أَوْضَاع مِنْ خُطَّتِي رَسْمِي وَمَنْشُودِي [1]

أما في تقرير حقيقة تعلقه بالغواني وميله إليهن طبعا وجبلةً فيقول مخاطبا إحداهن :

أَضْرَمَتِ نَارَ مَبَاخِرِي وَمَوَاقِدِي *** وَجَلوتِ مَا تَحْتَ الرَّمَادِ الخَامِـدِ

وَرَدَدْتِ لِلْمَرْجِ الْجَدِيبِ رَبِيعَـه *** لَمَّا طَلَعْتِ مَعَ المِسَاءِ البَــارِدِ[1]

فهو يصف اضطرام النار في قلبه ، ويشبهه بجمر خامد تحت رماد ، نُفخ فيه فعاد إلى وقدته ، ويشبه نفسه بمرج جديب مقفر إلى أن طلعت محبوبته فكانت كالسقيا التي أحيت مَوَاته ، ولا شك في أن الوصل بين المتحابين هو أنفع دواء تُداوى به جراحاتهم .

أما خبرته بأمور النساء وشؤونهن فإن له فيها القدح المعلى ، ومن ذلك عدم اكتراثه بتمنعهن وإعراضهن لعلمه أنهن يتمنعن وهن الراغبات ؛ يقول في فاتنة تبدي تمنعا ثم يسلس قيادها :

وَحْشِيَّةُ الوَجْهِ ، آفَاقٌ مُحَجَّبَةٌ *** وَرَاءَ وَجْهِكِ كُلُّ اللُّطْفِ مُخْتَصَرُ

كَمِثْلِ مَعْرُوفَةٍ جَاءَتْ مَطَالِعُهَا *** صَخَّابَةً ثُمَّ سَالَ النَّايُ وَالوَتَـرُ

أَوْ مِثْلَ زَوْبَعَةٍ رَعْنَاءَ أَعْقَبَهَا *** صَحْوٌ تَكَادُ لَهُ الآفَاقُ تَنْهَمِـــرُ [1]

ذاك لأنه يعلم أنه إذا ترفق ذَلَّ الصعب ولَانَ الصُّلب وآل عسيرها إلى يسر .

قَالُوا عَلَيْكَ الصَّبْرَ إِنَّ عَسِيرَهَا *** لِلْيُسْرِ ، وَالنَّبْعَ اللَّذِيذَ سَتَكْرَعُ [1]

وغالبا ما يمزج إعجابه بالحسان بافتخار وتعال لاحدود له ؛ فسطوة الحب وجبروته لاتلين عريكته أوتفت في عضده

يقول مفتخرا في قصيدة (شموخ) :

لَنْ تُدْرِكِي قِمَمِي وَلاَ أَغْـــوَارِي *** إِنِّي أَغِيبُ بِهَا عَنْ الأَبْصَـارِ

لَنْ تُدْرِكِي قِمَمِي المنِيعَةَ، وَيْحَهَا!*** كَمْ أَعْجَزَتْ مِنْ كَاسِرٍ مِغْـوَارِ

لَنْ تَفْهَمِي كَوْنِي الرَّهِيبَ وَمَا بِهِ*** مِنْ رَائِعٍ أَوْ سَافِلٍ مُنْهَـــارِ[1]

وفي قصيدة (صيادة) وبعد أن يعدد ما اشتملت عليه إحدى الغواني من مفاتن ، وما تفننت فيه من مغريات لصيده ، ينفي أن يكون كل هذا مما ينطلي عليه ويخاطبها بقوله :

وَحْشِيَّةُ الطَّبْعِ وَوَحْشٌ أَنَا *** فَلْتَعْزِزِي فِي القَلْبِ كُلَّ النِّصَالْ

نِصَالُكِ المسْمُومُ أَحْنَى بِهِ *** أَشْفَى لَهُ مِنْ غِيهِ وَاعْتِـلاَلْ

لَنْ تَسْمَعِيهِ ضَارِعًا بَاكِيًـا *** مُسْتَعْطِفًا فِي ذِلَّةٍ وَابْتِهَـــالْ [1]

ويمضي في شموخه مخبرا أن قناته لا تلين ، وغلته ممن يحب لا تَروى ، فإن ذكر قناعته بمن يحب فـ..... *** فَغُلَّتِي فِيكَ لَنْ تَرْوَى بِمَحْدُودِ [1]

وإن توهمت ضعفه و خوره أمام مغرياتها ، فلتعلم أنه الأعصى دمعا والأربط جأشا؛

لَنْ أَذْرِفَ الدَّمْعَ حُزْنًا فِي مَغَانِيهَا *** أَوْأَرْفَعَ الصَّوْتَ شَكْوَى مِنْ تَجَنِّيهَا [1]

وهو شديد التوجس من تقلب المرأة وغدرها ويجعله شيمة وجبلة فيها لاتقدر على الفكاك منه ، وهو ما يدفعه إلى أن يبادلها غدرا بغدر

إِنِّي أَخُونُ ومَا أَخُونُ لِنيةٍ*** فِي الغَدْرِ لَكِنْ كَيْ أَرُدّ مَثِيلَا[1]

فهو يؤكد أن حفظ المودة عندهن لا يكون إلا والحبيب حاضر ، والجيوب ملأى ، فإذا غاب أو افتقر تنكرن له ، واستبدلنه بغيره على رأي علقمة الفحل :

إِذَا شَابَ رَأْسُ الْمَرْءِ أَوْ قَلَّ مَالُهُ *** فَلَيْسَ لَهُ فِي وُدِّهِنَّ نَصِيبُ[1]

وهو ما ذهب إليه التليسي كذلك بقوله:

فَلَقَدْ رَأَيْتُكِ تَحْفَظِينَ مَوَدَّتِـــي *** مَا دُمْتُ قُرْبَكِ هَائِماً مَحْبُـولَا

فَإِذَا مَضَى عَنِّي الجُنُونُ وَأَقْلَعَتْ *** سُفُنِي تَرُومُ الشَّاطِئَ المأْمُولاَ

أَلْفَيْتُ عَاشِقَتِي تُعَانِقُ قَادِمًـــا *** قَدْ جَاءَ يَحْمِلُ وَافِرًا مَبْـذُولَا[1]

فهو المحب المتذلل إذا أقبلت ، وهو الجبار المنتقم إذا تباعدت لذا نراه يوجه (نصحا) إلى من حوله في صيغة أمر وهو في حالة حرقة والتياع من غدر غادرة؛

فَاشْرَبْ عَلَى شَرَفِ الخِيَانَةِ نَخْبَهَا *** وَاتْرُكْ بِشَاطِئِهَا الهَوَى مَقْتُولَا

لاَ تَرْحَلَنَّ بِشَهْوَةٍ مِنْ عِنْدِهَـــا *** وَاعْطِ اللَّذَائِذَ حَقَّهَا تَطْوِيـلاَ

وَاسْكُبْ لَهِيبَ النَّارِ مِنْ أَعْمَاقِهَا *** وَاتْرُكْ لَهَا الأَحْلاَمَ وَالتَّخْييلَا

فَلَعَلَّهَا فِي الصَّحْوِ مِنْ أَيَّامِهَـا *** تَتَبَيَّنُ الإِخْلاَصَ والتَّدْجِيـلَا [1]

3 - بكاء الشباب

لم يأسف التليسي على شيء فاته مثل أسفه على رحيل شبابه وانفراط عقد أيامه ، على عادة الكثير من الشعراء الذين درجوا على رثاء شبابهم فصاغوا في الحنين إلى أيامه الخوالي أجمل العبارات المؤثرة ، والأسف على رحيل الشباب وبكاء فراقه أمر شائع بين البشر على اختلاف أجناسهم ، وتتبع هذا في شعر الشعراء أمر يطول جدا

يقول التليسي متوجعا من هذا الفقد :

رَحَلَ الشَّبَابُ وَغَامَتْ الصُّورُ*** لاَ الدّلُّ يُغْرِيهِ وَ لَا الحَـوَرُ

لَا الشَّعْرُ شَلاَّلٌ يُعَابِثُهَـــا *** لَا الجِسْمُ جَبَّارٌ وَمُفْتَخِـــرُ

لَا لَحْظُهَا السَّاحِي بِنَظْرَتِـهِ *** لَا بُحَّةٌ فِي الصَّوْتِ تَسْتَعِـرُ

لَا المِغْرَيَاتُ بِكُلِّ رَوْنَقِـــهَا *** لَا هَمْسُهَا المِعْسُولُ لَا الخَفرُ

لَا الجِنْسُ يَصْرُخُ فِي مَفَاتِنِهَا *** أَمْوَاجُهُ تَعْلُو وَتَنْحَسِـــرُ

لَا مَسْحَةٌ غَجَرِيَّةٌ ظَهَـــرَتْ *** مَحْجُوبَةً بِاللُّطْفِ تَأْتَـــزِرُ

فَلْتَكْشِفِ الصَّبَوَاتِ لَا حَـرَجٌ *** غَطَّى العُيُونَ الشَّيْبُ وَالكِبَـرُ

رَحَلَ الشَّبَابُ فَأَيْنَ صَوْلَتُـهُ *** لَمْ يُبْقِ مِنِّي الهَمُّ وَالفِكَـــرُ[1]

ويؤكد فعل الليالي به وكيف غيرت حاله ، وأن ما مضى من أيامه السعيدة لم يكن سوى حلما استيقظ بعده على مرارة واقعه فيقول :

قَدْ غَيَّرَتْ مِنْهُ اللَّيَالِي وَانْقَضَى *** حُلْمٌ أَعَارَ الكَوْنَ بَعْضَ جَمَالِهِ [1]

ويؤكد هذه الحقيقة أكثر من مرة ويبثها في قصائده وهو ينعي شبابه الراحل ، متحسرا على سنواته الخوالي :

لَكِنَّهَا رَحَلَتْ وَلَمْ يَبْقَ سِوَى *** حَسَرَاتِهَا فِي القَلْبِ تَسْتَعِرُ

وَلَرُبَّ حَظٍّ مَرَّ فِي أُفُقِـــي *** قَدْ خَانَهُ التَّوْقِيتُ وَالبَصَرُ [1]

ويقول في قصيدة (قلب) مخاطبا قلبه المتصابي رغم أن الشيخوخة أوثقت عقاله :

قُلْتُ لَهُ وَلَّى زَمَانُ الصِّبَا *** وَفَاتَنَا الرَّيَّانُ مِنْ خِصْبِـــهِ

مَا عَادَتْ الأَيَّامُ تَصْفُو لَنَا *** تَسْقِي عِطَاشَ الْحُبِّ مِنْ عَذْبِهِ[1]

وإذا ذكر مرحلة العشرين من عمره ، وقف مليا يستذكر أحلامه ، ويجأر بالشكوى من رحيلها عنه ، ويقول مخاطبا من جاءته بعد أن تصرمت أيامه :

يَا فِتْنَةً غَرَّاءَ سَاحِــــــــرَةً *** يَفْدِيكِ هَذَا الكَوْنُ وَالبَشَـــرُ
لَوْ جِئْتِ فِي العِشْرِينَ كَانَ لَنَـا *** شَأْنٌ مَعَ اللَّذَاتِ يَنْتَظِـــرُ
لَوْ جِئْتِ فِي العِشْرِينَ ذَاكَ فَتًـى *** عَاتٍ عَلَى الشَّهَوَاتِ مُقْتَـدِرُ
لَوْ كَانَتْ العِشْرِين طَوْعَ يَــدِي *** لَوَقَعْتُ لَا أُبْقِــي وَلَا أَذَرُ
لَكِنَّهَا رَحَلَتْ وَلَمْ تُبْقِ سِـــوَى *** حَسَرَاتِهَا فِي القَلْبِ تَسْتَعِـرُ[1]

ويلوم نفسه على أنه اشتغل بالأوهام ، فلم يحصّل لا أجرا ينفعه في الآخرة ، ولا هو نهل من اللذات وروّى غلّته ؛

أَتْلَفْتَ عُمْرَكَ لاَمَثُوبَةَ عَابِـــدٍ *** حَصَّلْتَ فِيهِ وَ لاَ مُنَى الفُجَّارِ[1]

من ذلك قوله وهو يصف حاله البائسة بعد تولي أيام الشباب الجميلة مما أشعره بوحدة قاتلة ؛

اليَوْمَ لاَ سَيْفٌ ولَا فَـــرَسٌ *** لاَ اللَّيْلُ يَعْرِفُنِي وَلَا القَمَــرُ
وَاليَوْمَ أَحْمِلُ وِحْدَتِي تَعِسًــا *** لَا طَارِقٌ بِالبَابِ لَا خَبَــرُ
وَحْدِي نَعَمْ وَحْدِي أَسِيرُ ضَنَى ***وَلَّى الهَوَى وَتَزَاحَمَ الضَّجَــرُ
وَحْدِي فَلَا الكَاسَاتُ مُتْرَعَــةٌ *** بالحُبِّ لاالحَزْنُ ولاوَتَـــرُ[1]

ويلاحظ هنا دور التكرار في ترسيخ المعنى وتأكيده ، فقد لعب دورا هاما في نسج خيوط موسيقية ، يشع منها حزن قاتل تجاه الوحدة التي يحياها الشاعر في خريف عمره ، فجاء التكرار متقاربا في الشطر الأول من البيت الثاني لكلمة (وحدي) مفصولا بينهما بكلمة (نعم) إمعانا في تأكيد ما ينتابه من هذه الوحدة وكأن سائلا سأله مستنكرا ؛ أتعيش وحدك بعد ما كان الكثير يتزاحمون حولك ؟! « فالتكرار يضع بين أيدينا مفتاحا للفكرة المتسلطة على الشاعر وهو بذلك أحد الأضواء اللاشعورية التي يسلطها الشعر على أعماق الشاعر فيضيئها بحيث نطلع عليها.»[1]

ونفي أن يكون الدهر قد أبقى فيه فضلَ قوة أو ما يغري الحسان بوصله فمجيئهن متأخر:

وَجِئْتِ وَقَدْ خَمَدَتْ جَذْوَتِى *** وَلَمْ تَبْقَ مِنْ فَضْلَةٍ فِي الدِّنَانِ [1]

وما تعاقب على الشاعر من هموم عاصفة وخطوب واصبة ، هدت ركنه وأوهنت عظمه ف :

لَمْ يَبْقَ مِنْ أَيَّامِهِ إِلَّا الرُّؤَى *** تَرْوِي لَنَا مَا كَانَ مِنْ سُلْطَانِهِ[1]

وبقي يندب حظه ويبكى « شبابا ليس يرتجع »[1]

ووظف الشاعر كذلك أكبر حشد من (اللاءات) وهو يصف حالته النفسية التي يعاني منها عندما فقد شبابه ، وقد كان لا يهاب اقتحام المخاطر في سبيل وصل الغواني وإبقائهن في شَرَكِه :

كَانَتْ إِذَا مَا عَرَضَتْ مُخَبَّأَةٌ ***مِنْ حَوْلِهَا الحُرَّاسُ وَالخَفـــرُ

أَنْزَلْتُهَا مِنْ عُلُوِّ هَوْدَجِهَـا *** لَمْ تُثْنِنِي الأَهْوَالُ وَالخَطَـــرُ[1]

فإذا زار روضا مربعا هاجت منه البلابل و استعر فيه الشوق إلى أمسه :

فَمَا أَتَيْنَاهُ عَنْ شَوْقٍ لِحَاضِرِهِ *** لَكِنْ أَتَيْنَاهُ مِنْ عَطْفٍ لِمَاضِيهِ[1]

ويذكر كيف خلع عنه الشباب إهابه البديع فيتفطر قلبه حسرة ، ويتمنى عودة أيامه الخوالي ولكنه يعلم أن التمني هو استحالة المتمَنَّى ، فينفى هذه العودة باستعماله الفعل (عاد) منفيا بـ (ما)

مَا عَادَتْ الأَيَّامُ تَصْفُو لَنَا *** تَسْقِي عِطَاشَ الحُبِّ مِنْ عَذْبِـــهِ [1]

وفي موضع آخر يقول :

مَا عَادَ لِي وَقْتٌ يَضِيعُ ثَمِينُهُ *** فِي الجَرْيِ خَلْفَ جَمِيلَةِ الأَهْدَابِ [1]

ويقول عن نفسه والألم يعتصر قلبه – بعد أن رأى إحدى الحسناوات الفاتنات فتذكر أيام شبابه واقتداره ، ورأى ما آل إليه حاله من ضعف ووهن– :

وَانْتَفَضَتْ فِي خَافِقِي جَذْوَةٌ *** كَانَ لَهَا بِالأَمْسِ شَأْنٌ وَحَالْ

كَانَ لَهَا بِالأَمْسِ ، يَا لَيْتَهُ *** تَوَقَّفَ الأَمْسُ وَمَاتَ الـزَّوَالْ

ذَكَرْتُـهُ ، ذَكَـرْتُ أَيَّامَـهُ *** أَيَّامَ كُنَّا نَحْـنُ نَحْنُ الخِبَـالْ

أَيَّامَ كُنَّا لُبَّ هَذِي الدُّنَـــا *** لَا بَاطِلٌ يَرْدَعُنَا لَا مُحَـــالْ[1]

ورغم ذلك يعلل نفسه أنه ببيانه وحكمته مازال محط إعجاب الفاتنات ! ويبرر هذا الإعجاب في قصيدة (الربيع والخريف) بأنه يسحر ألبابهن بأقواله ويبسط لهن شراكه بألفاظه التي شبهها بالدر، فيتركن الفتيان و يقبلن عليه!.

فَتَبَسَّمَتْ يَارَوْعَةَ البَسَمَاتِ وَالشَّفَةِ النَّدِيَّـــــه

قَالَتْ لَهُمْ بِاللَّحْظِ مَا تُخْفِي الجَوَانِحُ وَالطَّوِيَّـــه

يئِسَ الرِّفَاقُ وَقَدْ رَأَوْا مِنْ رَفْضِهَا الحُجَجَ القَوِيَّـه

قَالُوا وَقَدْ أَنِسَتْ لَهُ الشَّيْخُ أَوْلَى بِالصَبِيَّـه

فَدَعُوا الطَّرِيقَ فَلَيْسَ يُجْدِي فَهْمُكُمْ سَبَبَ القَضِيَّه
فَلَعَلَّهَا أُخِذَتْ بِسِحْرِ القَوْلِ وَالدُّرَرِ السَّنِيَـــــه [1]

ويشبه قلبه بطفل متوثب لم توثقه سنوات الشيخوخة فيقول :

مَا إِنْ يَرَى حَوْرَاءَ حَتَّى يَرَى *** دَلَائِلَ الإِعْجَازِ مِنْ رَبِّـــهِ [1]

فكنى عن قلبه بـ (طفل متوثب) ليرمز إلى أنه رغم كبر سنه ، ما زال يملك من القوة والنضارة ما يستميل به قلوب الحسان ! فهو لا يؤثر فيه الشيب الذي علا المفرق ولا التجاعيد التي اختطتها السنون في وجهه ، وكأنه يؤمن أن الشَّباب شبابُ القلب، فإذا رأته إحداهن قالت:

تَاجُ المِشِيب عَلَاكَ حَقًّا إِنَّمَا *** رُوحُ الشَّبَابِ بِهِ تَضِجُّ وَتَخْفقُ [1]

ولكنه سرعان ما يثوب إلى رشده ويعلم أنه لايزيد في نظر الحسان عن شيخ هرم يعطفن عليه في حنان فيبادلهن بحنان الوالد

مِن بَعدِمَا عَصَفَ الثَّلِيجُ بِتالِدِي *** جاءَت تُناوِشنِي وَتُوقِدُ خامِدِي

لَو قَرَّبَتنِي السِّنُ كنْتُ صَدِيقَهَـا *** ورَفِيقَهَا وَطَرَحتُ زُهدَ الزَّاهِـدِ

لَكِنْ أَتَتْ وَالعُمرُ فِي إِدْبَـــارِهِ *** فَمَنحْتُها مِنّي حَنَانَ الوَالِـــدِ[1]

4 – خصائص شعر التليسي

والمتتبع لشعر التليسي من خلال النماذج السابقة يستطيع أن يلمح مميزات هذا الشعر وخصائصه الفنية فهو ينزع منزعا رومانسيا في شعره ؛ فحبه الخير، ونشدانه السعادة ، وتقديسه للحب ، وولعه بالمرأة ؛ كلها أمارات دالة على رومانسيته فضلا أنه ملأ شعره بصور ذات تكثيف عاطفي مع جعل التشخيص عمادها ، ناهيك عن الفترة التي عاش فيها الشاعر (1930 – 2010) ، وإعجابه بالشابي وتأليفه لكتاب يُظهر فيه تأثر الشابي بجبران ، ويضمنه إعجابه هو الآخر بالشابي ، وتأثره به في شعره كما جاء في مقدمة كتابه " الشابي وجبران " :« وأعظم ما أعجبني في هذا الشاعر الكبير صحة فهمه لرسالة الشعر ، وما أقل الأصوات التي تنطلق من الأعماق ، كما ينطلق صوته الخافت الهامس في قصائد الحب ، والعاصف الثائر في قصائده الوطنية إنه صوت عميق ... وأول عهدي بهذا الغريد ، ذلك اليوم الذي وقعت فيه على قصيدته " صلوات في هيكل الحب " فتلوتها في خشوع العابد ، ورددتها في ضراعة الزاهد المتبتل ثم وجدتني أحفظها مأخوذا بسحر معانيها وروعة تعابيرها ورقة موسيقاها وبراعة التلوين والتصوير، ومنذ ذلك اليوم أخذت أبحث عن الشابي.»[1]

وهذا النص يدل دلالة واضحة على مذهب التليسي الشعري فهو بمثابة البطاقة الشخصية لتجربته الشعرية.

وإذا عدنا إلى مناقشة ظاهرة التشخيص التي عُدّت سمة من سمات الشعر الرومانسي ، نجد أن الشابي كثيرَ التوظيف لها في شعره ؛ فهو يكثر من تشخيص الأشياء والمناظر الطبيعية وقوى الإنسان صادرا عن عاطفة مشبوبة وحس مرهف بجمال الطبيعة ، ولا يذهب التليسي بعيدا عن هذا ، فهو يمنح الكائنات كيانا إنسانيا يشاركه حياته ومشاعره ، ويشحن صوره شحنا عاطفيا كبيرا ليصور مدى معاناته من وطن تنكر، ومن شباب ولّى ، ومن غانية منحها حبه وجفته .

والتشخيص ليس بدعا في الشعر العربي اختص به الرومانسيون دون غيرهم من الشعراء ؛ بل كثيرا ما ورد في أشعار الشعراء منذ الجاهلية ، وأعطى الجرجاني أمثلة على ذلك من شعر لبيد وتأبط شرا وقال في بيت المتنبي :

خَمِيسٌ بِشَرْقِ الأَرْضِ والغَرْبِ زَحْفُهُ **وفِي أُذُنِ الجَوْزَاءِ مِنْهُ زَمَازِمُ [1]

« لما جعل الجوزاء تسمع – على عادتهم [يقصد الشعراء] في جعل النجوم تعقل ، ووصفهم لها بما يوصف الأناسي – أثبت لها الأذن التي يكون بها السمع من الأناسي .» [1]

وأشار في موضع آخر من " أسرار البلاغة " إلى أهمية التشخيص وهو يتكلم عن الاستعارة وفائدتها فقال : « فإنك لترى بها [الاستعارة] الجماد حيا ناطقا والأعجم فصيحا ، والأجسام الخرس مبينة ، والمعاني الخفية بادية جلية.»[1]

ورغم شيوع ظاهرة التشخيص في الشعر عامة والرومانسي منه خاصة ، إلا أن ارتفاع نسبة تكرارها في صور التليسي سواء القائمة على التشابه (الاستعارة) أوالقائمة على التداعي (المجاز) تذهب بالظاهرة إلى عدها سمة أسلوبية في شعر التليسي ، فهو يسقط أحزانه وما يعتمل بداخله على كل شيء حوله ، فهو يبث مشاعره في هذه الأشياء من خلال تشخيصها ، وهذا يبين درجة الامتزاج بينه وبين ما حوله من كون وطبيعة فهو يعد نفسه « كائنا من جملة الكائنات ضائعا بينها لا يتميز عنها بشيء من حيث أنه مسير تسييرها وأن اختياراته ومواقفه ليست إلا تطبيقا لإرادة تتجاوز نطاقه.» [1]

ورغم سعة إطلاع التليسي ونهله من ثقافتي الشرق والغرب ، وترجمته لأشعار طاغور الهندي ولوركا الإسباني ؛ إلا أنه ظل وفيا لثقافته العربية مسايرا لحركة الشعر في العصر الحديث ، فكتب قصائد شعر التفعيلة (الحر) ولكنه لم يكثر من هذا اللون ، رغم أنه أجاد فيه إلى حد بعيد ؛ ففي قصيدة (صوت) يقول :

قَالَتْ لِي يَا سَيِّدِي
يَا فَارِسَ الكَلاَمْ

يَا غَيْمَةً
تَشْتَاقُهَا
أَرْضِي عَلَى الدَّوَامْ
يَا نَهْرَ نُورٍ دَافِقٍ
فِي غَابَةِ الظَّلَامْ
يَا زَوْرَقَ النَّجَاةِ فِي عَاصِفَةِ الأَيَّامْ
يَا وَاحَتِي الظَّلِيلَةَ الرَّائِعَةَ الإِنْعَامْ
يَا نَغْمَةً تُجْرِي دَمِي فَتَرْكُضُ الأَحْلَامْ
تُنَضِّرُ العُمْرَ الذِّي أَجْدَبَهُ الفِطَامْ
أَرْضَعُهَا
أَشْرَبُهَا
صَافِيَةً
كَقَطْرَةِ الغَمَامْ ... [1]

وهكذا تمضي القصيدة منسابة ، وكأن السياب* أسقطها سهوا من ديوانه ، والتليسي يبرهن بهذا أنه غير مكثر من هذا اللون لا عن خور واستصعاب ؛ بل حبا في الإيقاعات العربية المعروفة ، مقتصرا في تجديده على الموضوعات والمضامين

أما شعر الحداثة فالظاهر أن التليسي لم يكترث له ، فهو لا يريد حداثة تبحث عن ما وراء المعنى بتحطيم المعنى وعلاقة الدال بمدلوله ، أوتهدم صرح قواعد اللغة ، وتعمل على تجديد الحاضر والمستقبل بنفي الماضي ، إنّ تجربته الشعرية تقف على أسس الماضي لتقيم صرح الحاضر وتطل من شرفاته على المستقبل ، إنه ينأى بتجربته الشعرية أن تكون هلوسة كهلوسة رامبو الذي قال: « لقد اعتدت على الهلوسة البسيطة وكنت أرى بوضوح كبير مسجدا مكان مصنع ، ومدرسة طبول يتولى شؤونها ملائكة ، وعربات على دروب السماء ، وصالونا في قاع بحيرة ... وقد انتهى بي الأمر إلى اعتبار فوضى فكري مقدسة.» [1]

لذا لا نعثر في ديوانه على (قصائد نثر) أو طلاسم لا يهتدي القارئ إلى فك غموضها ، أورموز موغلة في التجريد ، إن بعض قصائده تعيدك إلى عصور الشعر الزاهية ، كما أن بعضها يوقفك على التجديدات التي لحقت بالقصيدة العربية وما أكسبها هذا التجديد من رونق ، ولا ينبغي أن ننسى أن

التليسي ابن زمنه وبيئته، فلا نسقط من حساباتنا تاريخية العلاقة بين النص الشعري وزمنه ، أوالعلاقة بين الشاعر وبين سياقه الثقافي وحاجات عصره .

مصادر البحث ومراجعه

1) التليسي ، محمد خليفة – الشابي وجبران – الدار العربية للكتاب ، طرابلس (ليبيا) – ط : 4 / 1978

2) التليسي، خليفة محمد – قدر المواهب (الديوان) – الدار العربية للكتاب ، طرابلس (ليبيا) – دط /1989

3) الجرجاني ، عبدالقاهر – أسرار البلاغة – (تحقيق : محمود شاكر) – دار المدني ، القاهرة – ط : 2 / 1991

4) الجرجاني ، عبدالقاهر – دلائل الاعجاز– (تحقيق : محمود شاكر) – دار المدني ، القاهرة – ط : 2 / 1992

5)) جهاد ، فاضل – مقال (خليفة التليسي ...إنجازات أدبية وحضارية) – مجلة "العربي" – العدد : 628 / مارس 2011

6) السقا ، مصطفى – مختار الشعر الجاهلي – المكتبة الشعبية ، بيروت – دط / 1969

7) الطرابلسي، محمد الهادي – خصائص الأسلوب في الشوقيات – منشورات الجامعة التونسية ، تونس – دط / 1981

8) المتنبي ، أبو الطيب – ديوانه – دار صادر ، بيروت – ط : 15 / 1994

9) مطلوب ، أحمد – في المصطلح النقدي – منشورات المجمع العلمي ، بغداد – دط / 2002

10) الملائكة، نازك – قضايا الشعر المعاصر – دار العلم للملايين ، بيروت – ط : 12

المقاربات العَقَدية في تشكيل أنماط الهوية (متابعات دلالية قيْمِية)

د.محمد حجازي ،جامعة باتنة

الملخص:

يتناول المقال جملة من المعطيات، التي تزاوج بين الطرح الديني العَقَدي، والطرح اللغوي المعرفي وفق خلاصات ومفاهيم ذات دلالات نسقية تاريخية وشرعية وأدبية؛ لكون الهوية في تشكيلها تقوم على أكثر من جهة وجانب في خصوص دلالاتها ومقامات تكوينها وغرسها في الأجيال تباعا.

والمقال يحاول طرح مثل هذه الأفكار بدلالاتها اللغوية والدينية، وفق طرح واقعي يأخذ من كل علم بطرف، ويحاول فقه هذه المدارك ورسمها بأبعادها المختلفة الجوانب والرؤى.

Résumé:

Offres avec le numéro des données, qui combinent le discours religieux grumeleux, et la soustraction de connaissances linguistiques, conformément à des résumés et des concepts de la sémantique légitimité historique systémique et morale; le fait que la formation de l'identité est fondée sur plus d'un et le côté par rapport au sens, et les sanctuaires de leur composition et instillé dans les générations, respectivement.
L'article tente de discuter de ces idées Bdalaladtha linguistiques et religieux, selon de mettre un réaliste de prendre de toute la partie scientifique, et tente de la jurisprudence de cette compréhension et peint avec ses différentes dimensions et les aspects des visions.

إشكالية الموضوع:

يتعدى مفهوم تشكيل الهوية، أنماط المقاربات البينيَّة التي تسعى إلى ترسيخ بعض المفاهيم والأبجديات والطرائق... دون الأخرى؟ وذلك لكون مفهوم الهوية مُتَّسِع الدوائر مُتشعب الاتجاهات والأفكار.

والطرح الذي يحدده هذا الموضوع، يتعلق بالإجابة عن أسئلة الهوية الغير محددة المعالم والأفكار، وفق النظرات الأيديولوجية المتزاحمة بين الأنا والآخر؛ حين يقع الجدال حول الهوية العقدية واللغوية، وهما من أكثر النشاطات والمعارف طرحا وتميزا، لمكانتهما في المعارف الإنسانية قاطبة .

إن هذا الطرح، يُحصر تشكيل الهوية في بُعدين يشكلان بقية الأبعاد النظرية والتطبيقية الأخرى، وهما: الدين واللغة، وعنهما تتم الإجابات عن الأسئلة المتزاحمة والمختلفة.

مقدمة

يتحرك مفهوم الكون والحياة، وفق بُعد الزمان والمكان وتفعيل الأحداث إزاءهما، ونمط الأبعاد المكونة للإرث الإنساني ككل.

وتتمحور الرؤية بنواميس وأبجديات الفعل ورد الفعل؛ حيث الواقع الذي تآلفت منه المعايشات الضمنية بقواعد التثاقف والتأصيل والانتماء، وصناعة الهوية.ووفق مراحل البُغية والتأمل، حين تنشأ المدركات الفعلية التي تثمِّن وتنمِّي قواعد الإدراك ومحصول المفاهيم؛ حتى تتشكل أبعاد الوجود الإيجابي والفعال لدى الإنسان السوي المدرك لحقيقة وجوده، كما أراد الله تعالى له أن يكون: « ۞يا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ» [1]

وهذا الاستخلاف مَكْمَنه فهم الأزمنة قديمها وحديثها، بوصفها أزمنة لصناعة حياة الإنسان وفق قواعد النواميس الشرعية، التي تحكي عن المتناميات الفعلية المسيِّرة لدواليب الحياة وصناعة الحضارة والخيرية في هذا الوجود: ً لا يمكن فهم الأزمنة قديمها وحديثها، بوصفها أزمنة فحسب بل لكونها صنعت الإرث الثقافي والمعرفي والعقدي للأجيالً . هكذا يقول أهل المعرفة والحكمة والدراية.

ما جعل المفكر الغربي هيرماس« HIRMAS »يذهب هذا المذهب أيضا، حين يتحدث عن التحولات الإنسانية إزاء قواعد العصور وصناعة الأيام والظروف؛ لكن شريطة المحافظة على الأصل والمنْبَت والمعتقد، يقول: ً لا ينكشف التوافق الأزلي في اتجاه الأبعاد المعاشة قديما وحديثا، إلا حين تتوافق ألبسة العصور في خاماتها، وإن اختلفت في ألوانها ودعواتهاً . [2]

وكأنه في هذه الحالة يؤصل للأصل والأصالة، فكلما حدث التجدد والتغيير، كلما اكتشفنا أن التشبث بالأصل فريضة حتمية لصناعة الأزمنة المختلفة(الماضي–الحاضر– المستقبل

وهذه الصناعة تكمن دواليبها في المحافظة على ما اقتنع به العقل وهضمته الضمائر، وتجاوبت معه الأنفس؛ كما حدث للمسلمين حين اعتنقوا الإسلام وآمنوا بمبادئه وقيمه، وتأصلت عندهم المفاهيم، وثبُتت كل الخيارات ومن ثمة جاء على لسانهم كما حدث عنهم القرآن الكريم في قوله تعالى:« إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ».[3]

---

[1]– سورة ص– الآية: 26

[2]– ينظر / محمد عبد الرؤوف عطية– التعليم وأزمة الهوية الثقافية– مؤسسة طيبة– القاهرة– ط1–2009م

[3]– سورة فصلت– الآية 30

وهذا مكمن الرؤية الوجودية الأزلية الشاملة، التي يختلف بها المسلم عن غيره، في كونه هضم حقيقة الوجود، بمعنى حقيقة الدنيا بعيدا عن فكرة: (أرحام تدفع، وأرض تبلع).وبالتالي حقيقة النعيم المقيم:« وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ».[1]

وهذه ميزة لا توجد عند غير المسلمين، من أهل الملل والنحل الأخرى قاطبة.

وبذلك تحققت عزة المعتقد، وعزة الانتماء، وعزة الوجود، يقول تعالى:« وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ».[2]

-المجتمع الإنساني وأزمة المعتقد

لقد كان الوضع الإنساني في عمومه، يعيش حالة من الفوضى والدمار الأخلاقي والاجتماعي السائد، وذلك من أثر طغيان المادة والمنفعة واللذة على حياة الناس؛ حيث يُعَدُّ ذلك مقصدهم في المبتغى... مما جعل العالم يحتكم للغة القوة والسطوة والجاه والسلطان والنفوذ...؟ حيث هُدرت المعاني الإنسانية السامية، ودِيسَت كرامة البشر، الذي كرمه الله سبحانه وتعالى على سائر المخلوقات مجتمعة، يقول تعالى: « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيْ آدَمَ وحَمَلْناهُمْ في البَرِّ والبَحْرِ ورَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّباتِ وفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ».[3]

وبالتالي قُسّمت المجتمعات البشرية إلى مناطق نفوذ وقبائل، والكلمة الأولى والأخيرة للأكثر قوة ومادة وتلاعبا بالقيم والأهداف والمبادئ!!. إنها لغة الغاب، ومنطق يتناغم مع الوصف الدَّال والمعبِّر نحو سلطة القوة، وقوة السلطة: « إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ».[4] وقوله تعالى أيضا: «قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ».[5]

وبالنظر إلى حال المجتمعات، يمكن القول أنها تعيش شتاتا وتقهقرا وتخلف وظلما كبيرا ؟!. وذلك لكون الجاهلية تعتمد المواصفات نفسها والمقاييس والميكانيزمات... التي أدارت شؤون الإنسان خارج دائرة التوحيد؟! إنها مفارقات لا تصنعها إلا الجاهلية؛ و لا يشتهيها إلا الجاهلي بكل ذوق وحرص وتلقائية!!

ولعل لذلك بعض الأسباب المتعددة، يأتي على رأسها: تخلي الناس عن الطريق القويم؛ حيث كانوا أذلةً تتنازعهم الأهواء.. فأعزهم الله بالإسلام.

---

[1]- سورة آل عمران- الآية 133

[2]- سورة المنافقون- الآية 8

[3]- سورة الإسراء- الآية: 70

[4]- سورة طه- الآية: 71

[5]- سورة غافر- الآية: 29

ومن مظاهر السطوة في تلك العهود، أن الفُرس والروم كانا يتقاسمان النفوذ على كل البلاد، حيث كان العرب – مثلا – يدفعون الإتاوات مقابل حمايتهم، وهم يعتقدون أنهم أحرارا لا يمكن لأحد أن يستعبدهم؟ لكن منطق القوة فوق كل ذلك وبكل تأكيد! وحين ارتبطوا بالذكر الحكيم، والرسالة السامية العظيمة؛ التي جاءت لإخراج الناس من جاهلية الجاهليات، إلى نور الإسلام والتشريع الحكيم بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن. قوله تعالى: « وَلَو كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ». [1] وقوله أيضا:« وَ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُورِ بِإِذنِهِ وَ يَهْدِيهِمْ إِلى صِراطٍ مُّسْتَقيمٍ ».[2] أنَابَ الناس بعربهم وعجمهم إلى هذا الحق، الذي استبدل الجاهلية بالعلم والنور الذي هو التوحيد. والطيش والحمق بالسماحة والاعتدال، والفخر والتكبر بالتواضع وحسن العِشرة والعفو الذي لا يَصدُر إلا عن الكريم. قوله تعالى: « والكَاظِمِينَ الغَيْظَ والعَافِينَ عَنِ النَّاسِ واللهُ يُحِبُّ المحْسِنِينَ ».[3]

إنه الإسلام المشتق من السلام أصلا... حيث كان ولا يزال هو الخير الذي لا ينضب، والبشارة التي لا تُرهِبْ ، والتحضُّر الذي لا يَزْأَبْ ، والخُلُقُ الذي لا يَجْدِبْ... وحُقَّ له صلى الله عليه وسلم أن يقول عن نفسه واصفا رسالته التي تحمل كل هذه المعاني: « إنما أنا رحمة مهداةً .وقوله صلى الله عليه وسلم: ً إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». [4].

وعليه بدأت البشرية ترى النور المبين، حين وجد الناس أنهم مدعوون لعبادة إله واحد سبحانه وتعالى، وأن نبيهم الكريم عليه الصلاة والسلام، جاء برسالة جامعة شاملة لكل ما جاء به الرسل (عليهم السلام) من قبله... حتى أن الناس وعلى مختلف أعراقهم وألوانهم دخلوا أفواجا في هذا الدين القويم، الذي وجدوا فيه ضالتهم التي ينشدونها، وهويتهم التي يفتخرون بها — هوية اللغة والدين– والتي تسوي بين الناس في الجاه والمال والسلطان، والأفضلية فيها للتقوى والعمل الصالح، يقول تعالى:« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ».[5]

ثم إن الناس أدركوا أن أوضاعهم قبل الإسلام، لم تكن بمنآى عن الأخطاء الفادحة، التي كانت تدير شؤون حياتهم، ومنها ما كان يجبرهم على التعاطي مع العِرقية والاحتكام للهوى ...إلخ. ومن هذه المعطيات الجاهلية ما يلي:

1–الاحتكام للأعراف والتقاليد المستمدة من تجاربهم.

---

[1]– سورة آل عمران – الآية: 159

[2]– سورة المائدة– الآية: 16

[3]– سورة آل عمران– الآية: 134

[4]– ينظر/ مكارم الأخلاق– الشيخ رضي الدين أبي نصر — دار المرتضى– ط1– 1424هـ– 2003م– ص 5

[5]– سورة الحجرات– الآية 13

2-الاحتكام إلى العرافين والكهان، وإدارة مصائرهم عن طريق أحكامهم الظنية والتخمينية الجوفاء.

3-الاحتكام بالقرعة والكهنوت، يقول فيهم الشاعر العربي الحكيم:

لا تدري الطوارق بالحصى*** ولا زاجرات الطير ما الله صانع

4-النظر من خلال رئيس القبيلة، وما يتبع ذلك من مظالم[1]، وأحكام عشوائية لا صلة لها بشرع ولا بدين.

ووجدوا أن الإسلام يعتمد وظيفة الخيرية والاتجاه إلى قِوامة الإنسان في كل شؤونه وضروبه، عدلا وتسامحا ومع الجميع ودون استثناء : ً من خصائص الإسلام ، الحرص على إبلاغ الفرد والمجتمع أعلى مستوى ممكن من الكمال والسمو والارتقاء... وهذه هي مثالية الإسلام، ولكنه في الوقت نفسه لا يغفل عن طبيعة الإنسان وواقعه، ومقدار استعداده وتفاوت الأفراد في الملكات والقدرات والنشاطً . [2]

وهذه هي واقعية الإسلام التي جعلت الناس يتعلقون به أكثر، ويحرصون عليه بما أوتوا من صبر وثبات وطمأنينة نفس، ورجاحة عقل.

– الإسلام وتشكيل الهوية

يتميز هذا الدين الحنيف بكونه الينبوع الذي سطع للبشرية، لإخراجهم من الظلمات إلى النور ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد؛ توحيدا وإخلاصا قولا وعملا...لأن سنن الكون تقتضي أن : ً لكل شيء طبيعة تخصهً . [3]

وتعاليمه تنبع من حاجات الناس في مختلف الأمصار والبلدان، وعلى تنوع الألسنة والأعراق والألوان، وتتحرك وفق هوية واحدة صنعتها لفظة التوحيد حيث: ً تتحرك الهوية على ثلاث دوائر ذات مركز واحد، وهذه طبيعة الهوية الإسلامية:

1-الفرد داخل الجماعة الواحدة، هو عبارة عن هوية متميزة، لأن الإسلام يؤصله أولا، ويمنح له الحرية ثانيا، والانطلاق نحو آفاق العلم والمعرفة ثالثا.

2-الجماعات داخل الأمة، هوية ذات سقف واحد؛ لكنها متنوعة حسب الثقافة والجغرافيا والأهداف. { كحال العرب مثلا وأهل إفريقيا }.

3-الأمة الواحدة، وهي أوسع نطاقا وأكثر قابلية للتنوع والتعدد وحتى الاختلاف (وليس الخلاف)، مع أن الهوية في الأصل واحدة، وهي الهوية الإسلامية. [4]

---

[1]- بتصرف/ د. رحيم كاظم محمد الهاشمي وآخرون- الحضارة العربية الإسلامية (دراسة في تاريخ النظم) الدار المصرية للكتاب- القاهرة- المكتبة الجامعية- غريان- ليبيا- ط2-2008- ص 55

[2]- أ.د. زياد أبو حماد- معالم في الثقافة الإسلامية- دار النفائس- بيروت- ص 76

[3]- محمود أمين العالم- حول مفهوم الهوية- العربي (الكويت)- العدد 437 إبريل 1995م- ص 26

[4]- بتصرف/ د. سعيد إسماعيل علي-الهوية والتعليم- عالم الكتب بيروت- ط1- 1425هـ-2005م- ص 28

مع جعل الأفضلية في كل ذلك للتقوى والعمل الصالح المثمر للجماعة والأمة، وهذه من الخيرية التي يتسم بها المسلم في كل مجال من مجالات الحياة؛ حيث تنعدم العرقية المتطرفة وتمحي الأفكار المسبقة حول الآخر، وينشأ الأصل الطيب والانتماء الخيري المحبوب: فالولاء (الهوية) إخلاص وحب يوجههما الفرد إلى وطن معين أو دين معين أو فكرة معينة، يضحي من أجل ذلك بكل مصالحه إن اقتضت الضرورة، دفاعا عن الانتماء والهوية . [1] بمعنى أن الهوية الدينية تتشكل وفق قواعد الإيمان والعمل من أجله ، ولا فرق في ذلك كما يقول النبي عليه الصلاة والسلام في معنى حديثه الشريف: (لا فرق لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح).

إنها دعوة السماء لأهل الأرض، أن تكون الأخوة والمحبة بينهم في الإسلام ولا شيء دونه ولا سواه، يقول تعالى: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ».[2]

وبذلك تتشكل قوامة الأمة، التي تهدف إلى بعث هوية متلاحمة، لا ينطبق عليها تفسير الغرب للهوية؛ لكونهم ينظرون إليها على أنها سعي مادي وهيمنة ربحية كما يقول هيجل**HIGEL**، أبرز المنظرين للهوية فلسفيا، وهي لديه: " لا تنفصل عن الاختلاف والهوية الصورية المجردة؛ هي هوية الفهم أو علاقة الماهية بالظواهر.!! ". [3]

ولعل هذه النظرة تجاه الهوية، لا تجعلها أكثر قربا لما تهدف إليه الدعوة الإسلامية في تشكيل ثقافة الفرد ومفاهيمه ومعارفه، وبالتالي صقل الهوية لديه بما يتلاءم ومفاهيم العقيدة وأبجديات السلوك القويم، الذي يشعر به الفرد تجاه إخوانه من أهل العقيدة والتوحيد:(المسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه ببعض (وشبك بين أصابعه))، كما ورد عنه في معنى حديثه عليه الصلاة والسلام.

يقول في هذا المعنى والاتجاه الدكتور محمد سعيد بن أحمدو: " ننظر إلى الهوية باعتبارها وافية بدراسة ذات الفرد وتفاعله مع الآخرين، من خلال دور معين يقوم به أهل جماعة لها هويتها الثقافية والدينية، وفي ظل سلطة عامة تحدد مجموعة من الأهداف التي تسير من خلالها حياة هذا المجتمع بكافة أبعادها " . [4]

وهذا ما يجعل مسئولية الفرد المسلم داخل المجتمع، مسئولية مشتركة تتعاضد حولها مجموعة أهداف ومبادئ قلما نجد نظيرا لها في فلسفة من الفلسفات أو في ملة من الملل، لأنها: " تشمل جميع العلاقات

---

[1]- د.محمد عبد الرؤوف عطية- التعليم وأزمة الهوية الثقافية (مرجع سابق)- ص 31-32

[2]- سورة الحجرات- الآية 10

[3]- ينظر/ د. محمد بن سعيد أحمدو- موريتانيا بين الانتماء العربي والتوجه الإفريقي (دراسة في إشكالية الهوية السياسية)- مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت- ط1- 2003م-ص 27

[4]- المرجع السابق- ص 26

الإنسانية، وهي ثابتة لا تتغير بتغير المكان والزمان، وتشكل قاعدة أساسية للسلوك الأخلاقي والمعرفي، كالمبادئ وحل المشكلات ...إلخ . [1]

يقول تبارك وتعالى:« وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ»[2]

لكون الإسلام يحفظ هوية الإنسان وكرامته، ويبعد عنه عوامل الذل والمهانة والانحلال.

وجعل سبحانه وتعالى لسانا بينا واضحا لهذه الرسالة، التي أعجزت بقرآنها أهل الفصاحة واللغة والبيان، من عرب الجزيرة العربية الذين كانوا آية في البلاغة وحجة في البيان والفصاحة. اللغة العربية هي لسان الوحي وترجمان الرسالة إلى البشر كافة. ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم في معنى قوله: (من تكلم العربية فهو عربي).بمعنى أن اللغة العربية، هي لغة كل مسلم من أي عرق أو جنس أو موطن أو بلد: ً إن انتماء الدول الإفريقية مثلا، لا يقل أهمية عن انتمائها والتزامها بالعمل لوحدة الشعوب العربية والثقافة العربية الإفريقية؛ بل إن بعضا من الدول العربية يغلب عليها الانتماء الإفريقي ً . [3] ومن ذلك قديما الاشتراك اللغوي، حيث كانت العربية لغة الدين والعلم في كل أصقاع بلاد المسلمين: ً الولاء في اللغة يعني المحبة والصداقة والقرب والقرابة والنصرة ً . [4] هكذا كان حال المسلمين إلى أن دخل الاستدمار واحتل الأرض والعقل، فحول الناس على الأقل عن ألسنتهم العربية المبينة وأدخلهم في دائرة لغاته وكياناته الثقافية: ً إن الاستعمار متمثلا في أدواته الثقافية، كان يعي خطورة هذه الحقائق ودورها في توحيد شعوب إفريقيا خارج أرض الخلافة بشعوب أرض الخلافة في إفريقيا وخارجها، توحيدا يقود الشعوب المستعمَرة في دروب التحرر خارج أداة الهوية الإسلامية الواحدة، للإبقاء على حالة الاستعمار بعد جلاء جيوشه ً . [5]

ولذلك فإن المجتمعات الإفريقية وكذلك العربية بطبيعة الحال، لم تواجه مشاكل تُعيق سيرها نحو تشكيل الوحدة والهوية مع كل من آمن بالتوحيد واعتنقه وتعلق بلغة القرآن الكريم، الذي جاء بلسان عربي مبين؛ بل إن ذلك زاد من عزة الأمة قاطبة وجعلها بدين واحد ولغة مشتركة، بالرغم من تعدد الأعراق والألسن... ولذلك لم تواجه مشاكل أعاقت هذه الأخوة ولا هذه الوحدة أبدا، بل بقيت القلوب تنبض بحب بعضها في أدنى الأرض وأقصاها، دون إلتفاتة للون ولا لعرق: ً لم تواجه المجتمعات الإسلامية فيما

---

[1]- المرجع نفسه- ص 13-167

[2]- سورة الأعراف- الآية 10

[3]- المرجع السابق (موريتانيا والانتماء العربي) ص 58

[4]- التعليم وأزمة الهوية الثقافية (مرجع سابق)- ص 31

[5]- عبد الملك عودة وآخرون- العرب وإفريقيا- مركز دراسات الوحدة العربية- منتدى الفكر العربي- ط1-1984- ص 86

مضى شيئا من مشكلات الشيخوخة، ولم تظهر هذه المشكلات بارزة في مجتمعاتنا إلا بعد أن أصيبت المجتمعات الإسلامية بأمراض المجتمعات الأخرى وتقاليدها ونظمهاً . [1]

وإذا كانت منظومة الهوية تتوزع وفق هذه المدارك، وتتنوع حسب المعتقدات والأيديولوجيات، فإن فهمها بالتالي يعني كنهها الأساسي الذي بواسطتها تعرف، فهي إذا: ً ظاهرة تاريخية تجد تفسيرا لها أو قاعدة، أو أنها العملية التي بواسطتها تنتقي جماعة من الناس سمات معينة من ذخيرتها الثقافية والدينية في فترة من الفترات، ثم تلبس تلك السمات رداءا من الرموز والطقوسً.[2]

ولذلك نجد نوعيات من الهوية، أكثرها حصنا وتقبلا ودواما؛ هي الهوية التي يصنعها الدين المشترك وخصوصا إذا كان في منزلة هذا الدين القويم الذي هو الإسلام: ً إن الهوية القومية لمعظم الشعوب، هي محصِّلة لعملية طويلة من التطور التاريخي، تتضمن المفاهيم المشتركة والخبرات المشتركة واللغة المشتركة والثقافة المشتركة، والدين المشتركً . [3]

ولعل مفهوم الهوية يتحقق أكثر، حينما تندمج شعوب مع بعضها من خلال مرحلة من مراحل التاريخ أخذا بعطاء الدين والهوية: ً لأن الهوية هي مجموعة من السمات العامة التي تميز شعبا أو أمة أو شعوبا وأمما في مرحلة تاريخية معينة بمقوم أساسي يُكوِّن شخصيتها ولسانهاً . [4]

وتأتي الهوية على مستويات فكرية ووظيفية ولسانية وعقدية، وكلما اجتمعت هذه الوظائف بإحكام وتقبل ووعي... كلما شكلت الهوية الأكثر تماسكا وديمومة وعراقة: ً مستويات الهوية أربعة وهي:

1- مستوى الفرد كفاعل.

2-مستوى وظيفة الهوية بالنسبة للفرد.

3-الهوية كعنصر للجماعة.

4-الهوية كشعار وانتماء. [5]

ولهذا يجب على الخطاب الإسلامي ، أن يركز على العناوين التي صنعت هذه الأمة الواحدة وشكلت هويتها العَقَدية واللغوية ، وحبَّبته عند كل مقتنع به ومؤمن بالعقيدة التي صقلته ورسخته في العقول والأفئدة والنفوس، كما هو الحال بالنسبة للأخوة التي تشكلت مع الشعوب والأعراق في جنوب الصحراء الكبرى، حيث يمكن القول: ً إننا ننتسب إلى القارة الإفريقية وإليها تشدنا جملة من المصالح

---

[1]- أ.د. حسن شحاتة- من قضايا الثقافة المعاصرة- دار العالم العربي القاهرة- ط1-1430 هـ- 2009م- ص 149

[2]- Khalil nakhleh (cultural de terminant of pales tian collective identity- new outlook, 47 vol.18, N°7 (1975) p.23

[3]- س –ث إيزليتا – الهوية الأمريكية- المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية (اليونسكو)- العدد 134- ص 141

[4]- بتصرف/ نديم البيطار- مفهوم الهوية القومية- السنة الثالثة - العدد 1- (13) سبتمبر أكتوبر 1980م ص 10

[5]- للمزيد ينظر/ موريتانيا بين الانتماء العربي والإفريقي (مرجع سابق)- ص 26

وجملة من الروابط الثقافية والروحية (الدينية)، فالتضامن والمصير بيننا وبين القارة ينبغي أن يبقى دوما مركز اهتماماتنا السياسية والاقتصادية والحضارية وقبلها جميعا الدينيةً . [1]

بمعنى نزع فتيل التصادم مع الملل والنحل الأخرى، كي لا نقع فيما يناقض ويشوش على الهوية الواحدة، لأن النص القرآني يوجب التحاور والجدال بالتي هي أحسن مع الآخر، ورفض مبدأ الصدام والجدال العقيم: ً يجب أن يبرز الخطاب الديني العلاقة التي كان الإسلام يقيمها بينه وبين الديانات السماوية الأخرى... فهي علاقة تقوم على المغايرة لا على الضديةً . [2]

إنها عظمة دين وصل إلى حدود منابت شروق الشمس، ومنابت غروبها. يعتز أهله بقرآنهم، وبلغة قرآنهم، وبتعاليم قرآنهم... لا فرق بين أبيضهم ولا أسودهم، ولا بين غنيهم وفقيرهم إلا بقوة القربى من الله تبارك وتعالى قولا وعملا، صدقا وإحسانا، وعقلا وعلما وتميُّزا وحضارة، وفقها واجتهادا، آخذين بقوله تعالى:« إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ».[3] وقوله تعالى أيضا:« وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ ».[4]

وبهذه التعاليم والقيم السمحة النبيلة، وصل الإسلام إلى إفريقيا وبقية أقطار الأرض، عن طريق علماء أجلاء كالعالم الشيخ آدم عبد الله الإلوري (رحمه الله) الذين أسهموا بما أوتوا من علم وحكمة وتبصر لتبليغ الناس وإفهامهم قضايا دينهم القويم ولغته السمحة المعطاءة؛ حتى يعيشوا سعادة الدنيا ونعيم الآخرة المقيم، يذكر الأستاذ عبد اللطيف أونيريتي إبراهيم عن أعمال الشيخ الإلوري فيقول مثبتا دوره كمصلح وأستاذ في بلده: ً لقد أسهم الشيخ آدم عبد الله الإلوري، مؤسس مركز التعليم العربي الإسلامي باغيغي، إسهاما فعالا في تطور اللغة العربية وأدبها، كما لعب دورا ملموسا في إعداد الأئمة والعلماء الهداة والخطباء والشعراء الفحول والكتاب النحارير، الذين لا يستهان بمشاركتهم في رفع الثقافة العربية وأدبها إلى أوج المجد الذي هي عليه حاليا في نيجيريا وخارجهاً . [5] هذه الثلة من العلماء كأنهم آخذين بقوله تعالى : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ».[6] وهم يدعون الناس إلى خير الإسلام وبركاته قوله سبحانه وتعالى: « قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ

---

[1]- Khalil nakhleh (cultural de terminates of pales tian collective identity- new outlook, 47 vol.18, N°7 (1975) p.23

[2]- أ.د. حسن شحاتة- من قضايا الثقافة المعاصرة- دار العالم العربي القاهرة- ط1-1430 هـ- 2009م- ص 85

[3]- سورة القصص- الآية 56

[4]- سورة آل عمران- الآية 159

[5]- عبد اللطيف أونيريتي إبراهيم- نظام الشيخ آدم عبد الله الإلوري في تعليم التأليف باللغة العربية في نيجيريا- جامعة إلورن- موقع أنترنت

[6]- سورة النحل- الآية 125

وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ».[1] وشعارهم الأساسي في دعوتهم قوله تعالى: « ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ».[2]

- **خطوات العلماء في الدعوة وتشكيل الهوية**

حين التطرق إلى الخطوات الواجب إتباعها في مسار الدعوة إلى الله، وتشكيل أبعاد الأمة المنشودة؛ كما حدث في العهد الأول (النبوي والراشدي). يجب الذكر على أن عمل الدعاة إلى الله يتوزع على أكثر من صعيد عملي وعلمي وتربوي وإرشادي... وأيضا على أكثر من مساحة وقطر وشعب وأمة ...إلخ. لكون الدعاة إلى الله، يعملون وفق وصية: ً بلغوا عني ولو آيةً . وهذا التبليغ، هو الذي يشكل في الأساس مرحلة التقبل عند الآخر، والنضج عند المعتنقين أساسا لمبادئ الدين في أركانه ونظمه.

ثم إن الدعوة هي التي تحافظ على جرعات الإيمان الدائمة والمتواصلة؛ لكون القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، وعليه فهي في حاجة إلى ترويض وتثقيف وتعريف بالمبادئ والأهداف والعبادات.

وعند الحديث عن إفريقيا كنموذج، نجد أن دور العلماء الأوائل، هو إيصال الدعوة إلى الناس كافة، مع تمكينهم من معرفة القواعد الأولى التي بواسطتها تتم العلاقات البيْنية بين الإنسان وربه من خلال دينه.ويمكن استعراض هذه القواعد والأهداف من خلال المحاور العملية التالية:

1- التفقه في الدين أساسا، لمعرفة الأسس و المبادئ والأركان التي تقوم عليها العقيدة السمحة.

2- التنوع في مختلف العلوم، لأن ديننا ينبني أساسا على فهم: (اقرأ) فهما واعيا ودقيقا، حتى يتبحر العالم في الثقافات والمعارف ليُقنع غيره نقلا وعقلا.

3- الاتصال بالجامعات والمشيخات المتخصصة وحلقات الدرس والعلم، حيث التنوع في الأفكار والتفاسير، ومعرفة المذاهب وقواعد كل مذهب بما يخدم مصلحة المسلم في دينه ولغته.

4- حضور المؤتمرات والندوات العلمية، لمجالسة أهل التخصص حتى يحصل التثاقف العلمي والمعرفي، للوصول إلى تكوين علماء يتعدى علمهم حدود الحلال والحرام إلى حدود: « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ».[3]

---

[1]- سورة آل عمران- الآية 164

[2]- سورة محمد- الآية 11

[3]- سورة الرحمن- الآية 33

5- معرفة لغة الإسلام معرفة جيدة (العربية)، حتى يحصل الفهم الحق والتأويل الراجح مخافة الوقوع في المحضور الذي يُفتِن ولا يُقنع.

6-حضور الإمكانات والمساهمات الخيرية قصد إعانة أهل الدعوة على دعوتهم، في نشر العقيدة السمحة؛ لأن الانطلاقات السليمة والفعلية لا بد لها من إيرادات تُحفِّز المدارس والمساجد ودور الدعوة والعلم والمعرفة.

7-الصبر والصدق في الدعوة، لأنهما أساس الانطلاقة ومبعث التضحية والعزة والفخر، كون الداعية في طريق الله وفي رحابه، يتعرض للكثير من المخاطر ولا يخاف في الله لومة لائم، إذ لا يتوانى عن قول الحق في كل مكان وعلى مختلف الظروف والأصعدة؛ إلا إذا خشي أن يزيل منكر ، ويأتي بمنكر أكثر منه، فهنا لا بد من الحكمة والصبر والدعاء...

8- التواصل مع قطاعات المعرفة اللغوية، حتى يتم التلاقح الإيجابي وفق معايير المعرفة والنقل والحفظ والفهم.

9- يتعدى نطاق تحقيق الذات في مجال الهوية، من مجتمع المساحة الضيقة إلى مجتمع المساحة الواسعة، عن طريق البرامج والحلقات والدروس التي تُثبِّت جانب الإدراك والتثاقف.

10- التوسع مع كل ما يحقق إدراكات التوصيل المعارفي للجانب الذي يحقق هوية الأنا، وفعل التواصل مع الأزمنة والأمكنة، حتى يتم التعميم وفق تراكيب الدلالات ومجالاتها المتعددة.

11- وضع برامج خاصة لتحقيق الأهداف التربوية، التي ترسخ فكرة المجموع و طموح الأنا، إن على مستوى اللغة أو التصور العَقَدي المتجاوب مع الواقع والضرورات الحتمية.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

1- محمد عبد الرؤوف عطية- التعليم وأزمة الهوية الثقافية- مؤسسة طيبة- القاهرة- ط1-2009م

2- مكارم الأخلاق- الشيخ رضي الدين أبي نصر – دار المرتضى- ط1- 1424هـ- 2003م

3 - د. رحيم كاظم محمد الهاشمي وآخرون- الحضارة العربية الإسلامية (دراسة في تاريخ النظم) الدار المصرية للكتاب- القاهرة- المكتبة الجامعية- غريان- ليبيا- ط2-2008

4- أ.د. زياد أبو حماد- معالم في الثقافة الإسلامية- دار النفائس- بيروت-

5 - محمود أمين العالم- حول مفهوم الهوية- العربي (الكويت)- العدد 437 إبريل 1995م

6- د. سعيد إسماعيل علي-الهوية والتعليم- عالم الكتب بيروت- ط1- 1425هـ-2005م-

7- د. محمد بن سعيد أحمدو- موريتانيا بين الانتماء العربي والتوجه الإفريقي (دراسة في إشكالية الهوية السياسية)- مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت- ط1- 2003م

8 - عبد الملك عودة وآخرون- العرب وإفريقيا- مركز دراسات الوحدة العربية- منتدى الفكر العربي- ط1-1984

09- أ.د. حسن شحاتة- من قضايا الثقافة المعاصرة- دار العالم العربي القاهرة- ط1-1430 هـ-2009م

- Khalil nakhleh (cultural de terminant of pales tian collective [1]0 outlook, vol.18, N°7 (1975) identity- new 47

11- س –ث إيزليتا – الهوية الأمريكية- المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية (اليونسكو)- العدد 134

12- نديم البيطار- مفهوم الهوية القومية- السنة الثالثة - العدد 1- (13) سبتمبر أكتوبر 1980م

13- عبد اللطيف أونيريتي إبراهيم- نظام الشيخ آدم عبد الله الإلوري في تعليم التأليف باللغة العربية في نيجيريا- جامعة إلورن- موقع أنترنت.